المحاضرة (12)

النقد السوسيولوجي:

ظهر مصطلح السوسيو نقدية *مع بداية السبعينات في مختلف التداخلات التي تناولت الأدب في منظور علاقته بالمجتمع، وقد اشتهر بهذا المصطلح الناقد الفرنسي "كلود دوشي" "Claude Duchet" حينما تساءل في مقاله الأول عن طبيعة المصطلح ومدى استعماله في حقل الأدب، ذلك للإشارة من جديد إلى بعض التيارات المعروفة في التحليل الاجتماعي للأدب مثل: النقد الوضعي والماركسي والبنيوي، هل هو جمع لتيارات متعددة في الدراسة النقدية للأدب عموما مثل: علم المعاجم وعلم الأسلوب وعلم الاجتماع وعلم الدلالة؟[1]

ولتفادي الاختلاط آثر كلود دوشي تحديد ميدانين معروفين، لكي يفتح الطريق أمام منهج السوسيو نقدية، وليوسّع ميدان استقصائها؛ إذ يتكون المحور الأول من سوسيولوجيا الإبداع الثقافي، المنهج الذي استحدثه "لوسيان غولدمان" "Lucien Goldman" تحت اسم "البنيوية التكوينية"، وهي فلسفة رؤية العالم بمستوييها الاثنين في تحليل العمل الثقافي: الفهم والشرح.

أما المحور الثاني فيتكون من سوسيولوجيا القراءة والإنتاج الأدبي، خصّص له "روبيرت إسكاربيت" "Robert Escarpit" جلَّ أبحاثهِ، بمساعدة جماعة من الدارسين في معهد الآداب والتقنيات الفنية الجماهيرية في جامعة (بوردو) بفرنسا.

وتهدفُ السوسيو نقدية قبل كل شيء إلى التركيز على النص سوى النص، النص كل النص، وهي دراسة اجتماعية للنصوص الأدبية، وطريقةٌ جديدة لقراءتها[2]، حيث يملك النص الأدبي حدودا متحركة، تمتد بين أصغر وحدة لغوية وبين مجموعةٍ معلومةٍ من الكتابات، وتتغير طبيعة النص الأدبي حسب الزاوية التي ينظر إليها –من جهة أخرى–، وبالرغم من إعطاء الأولوية للنص قبل غيره من المعطيات الأخرى، نجد السوسيو نقدية ترفض دراسة النص منعزلا عن إطاره الخارجي؛ ذلك أن مشروعها الأساسي هو "استرجاع المكونة الاجتماعية لنص الشكليين"[3]، كما تطمح إلى إظهار أن كل إبداع فني وأدبي هو أيضا ممارسة اجتماعية؛ لأن من وراء كل نص نعثرُ على كل الوسائط والتعقيدات اللغوية التي تكون من

هذا النص أدبيا؛ إذ يواجه النص قراءة ذوي الثقافة والأصول الاجتماعية المتعددة والمختلفة، فقبل أن يكتُبه الكاتب ويمنح له حركةً وحياةً، يكون قد أدركهُ القراء بطريقة ما متساوية أو مختلفة مع رؤيةِ الكاتب، الذي يُعتبرُ بدوره قارئا لنصِّه.

ويبيّن كلود دوشي الصعوبات التي تَحُول دون معرفة القارئ الأول لأي نص، ولا يمكن اعتبار صاحب النص هو القارئ الأول، فالنص الأدبي يملك قانونه الاجتماعي الذي يتحكم في ظروف إنتاجه؛ لأن شروط الاستقبال تساعد كثيرا على إنتاجه.

من هنا يمكن القول بأن موضوع السوسيو نقدية هو دراسة القانون الاجتماعي داخل النص، وليس التركيز على القانون الداخلي للنص، باعتباره ليس سوى تجربة اجتماعية عبر واقع متخيل، فهي تهتم بدراسة النظام الداخلي للنصوص في علاقته بالأنظمة الخارجية الأخرى، التي تَحْكُم سيرها وشبكة معانيها وتواترها.

ولدراسةِ النص الأدبي تقترحُ السوسيو نقدية التفريقَ بين ثلاثة عناصر، بإمكانها نقلُ وتوصيلُ الرسالةِ الإيديولوجية:

- **إيديولوجيا المنطق:** هي تلك الإيديولوجيا الخاصة بالمجتمع في شموليته، إنها تظهر حيّة في النصوص، حتى وإن كانت نضالية وملتزمة، إنها إيديولوجيا الطبقة المهيمنة وقيمها، سواء أكّد الكاتب على أصالة هذه القيم، أم أبرز تدهورها أو انهيارها أو زوالها.
- **المشروع الإيديولوجي للكاتب:** سواءٌ المُعلن أو المضمر، الذي بواسطتهِ يُدافعُ أو يحاربُ الإيديولوجيا المحاربة.
- **إيديولوجيا النص:** هذا النص المُحوّل بواسطة كتابته وقراءته معا نستشِفُّ بداخله مظاهر العودة إلى الإيديولوجيا الشاملة المهيمنة، أو بزوغ إيديولوجيا الانقطاع والمعارضة، يبحث هذا المنهج عن إعداد المعنى الأصلي للنص، وتبيان موقعه الإيديولوجي الخاص به دون غيره من النصوص، الذي يمكنه تحديد العلاقة القائمة بينه وبين المجتمع الحقيقي؛ إذ يكون التركيزُ على القيمة الخاصة بالنص، بإبعاد العنصرين الأولين اللذين يعتبران خارج النص[5].

إنّ الدراسة السوسيو نقدية تفتح العمل الأدبي من الداخل، لتُنتج فضاءً تنازعيا، أين يُصدَم المشروعُ الإبداعي بمقاومات وضغوطات وشعارات ونماذج اجتماعية وثقافية موجودة سلفا، مُتصلة أساسا بالطلب الاجتماعي في علاقاته بالأجهزة المؤسساتية، فمن داخل العمل الأدبي، ومن داخل اللغة تسألُ السوسيو نقدية الضمني والمسكوت عنه، لتستنطقهُ وتستخرجهُ، انطلاقا من فرضية اللاوعي الاجتماعي للنص، على اعتبار أنّ كلّ شيء في النص هو نتيجةٌ بشكلٍ أو بآخرٍ لحركةِ المجتمع.

من هنا تأتي الأهمية الحاسمة في دراسة الوسائط بين السوسيو نقدية والمجتمع، لتتبلور هذه المنطلقات في منهج نقدي، عُرف بأسماء شتى منها: المنهج الواقعي، المنهج الاجتماعي، المنهج الماركسي، المنهج المادي التاريخي، المنهج الإيديولوجي، النقد الجماهيري... تبعا للاتجاهات والنزاعات التي تفرّعت عن الفلسفة الأم، وتبعا لخصوصية كل ناقد[6].

1-جورج لوكاتش ونظرية الانعكاس :

إذا كانت الرواية حسب "لوسيان غولدمان" و"جورج لوكاتش": "هي قصّةُ كفاحِ بطل منحط، يواجهُ حاضرا منحطا متدهورا، بحثا عن قيم أصيلة، تعيد له مقامه، وللوجود وجاهته"[7]، فإنه بإمكاننا أن نعرف من خلالِ هذه العبارةِ المسارَ الذي حادثْ عنه الرواية، ثم معرفة المسار الجديد الذي التزمته، والمقصودُ هنا الشكلُ الروائي الجديد الذي أقام القطيعة بينه وبين الشكل الكلاسيكي، ولا أريد الحياد عن الكلام السابق لأقول: بأن الواقع المعيش هو الذي صاغ الشكل الروائي الجديد، وانطلاقا من المقولة الفلسفية السائدة والقائلة بأن الفن محاكاة للطبيعة الواقعية، جاء هذا الشكل الروائي الجديد، ليتحدث بصراحة عن الواقع الجديد، لا أنْ يصغي إلى احتجاجات الجمهور الرافض لرؤية صورته الحقيقية في الواقع، وقد انغرست فيها العيوب من كل جانب، ورؤيةُ جورج لوكاتش في هذا الصدد تثبتُ المشروعية الفعلية القائمة بين الرواية والمجتمع.

يُحدّدُ لوكاتش الرواية على أساس أنها: "الشكلُ الأدبي الرئيسي لعالمٍ لم يعدْ فيه الإنسان في وطنه، ولا مُغتربا كل الاغتراب، فلكي يكون هناك أدب ملحمي، لابد من وجود وحدة أساسية، ولابد لكي تكونَ هناك روايةٌ من وجودِ تعارض نهائي بين الإنسان والعالم، وبين الفرد والمجتمع"[8].

ليُعتَبر انطلاقا مما سبق "جورج لوكاتش" (ت 1971) المُنظّرَ الأساسي لهذا الاتجاه النقدي الواقعي الماركسي في النصف الأول من القرن عشرين، ذلك عندما درس وحلّل العلاقة بين الأدب والمجتمع، حينما تبنى نظرية الانعكاس بتطبيقها على الرواية بشكل عام، وعلى الرواية الأوروبية بشكل خاص، وقد فهم الأدب (الرواية) "على أنه انعكاس نموذجي وصحيح في الفن والأدب، وأوضح دور المبادرة الفردية في قهر الضرورة"[9]، ولهذا تعرّضَ لسلبية البطل وإيجابيته ونمذجته، وانبثق ذلك كله من أن "صراع الأفراد لا يستمد موضوعيته وحقيقته إلا من الانعكاس النموذجي والصحيح في الشخصيات والمصائر للمسائل المركزية لصراع الطبقات"[10]، في كل مجتمع أو واقع له خصوصيته، وبذلك يكون هدفه بيان أطراف الصراع الطبقي، للتأكيد على أهمية طبقة وأهمية شخصية ما تتحول إلى ممثل لصورة الصراع في عصرها، وكما يقول لوكاتش: "فكبار الروائيين يُجهدون أنفسهم لابتكار عمل يكون نموذجا بالنسبة إلى وضع المجتمع في عصرهم، ويختارون ركيزة لهذا العمل إنسانا يلبسونه السمات النموذجية للطبقة، ويصْلُح –في الوقت نفسه– في ماهيته كما في مصيره لأنْ يظهرَ بمظهر إيجابي، ولأن يبدو جديرا بالتأييد والمعاضدة"[11]؛ أي أن الفكر الذي يؤمن بأن فهم الإنسان والأفراد لا يمكن بمعزل عن حياتهِم، ووجودُهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي هو البطل الحقيقي، الذي يحدِّد فاعلية الفرد في الجماعة، إلى جانب تحديدِ مصير سلوكه وهزيمة إرادته وانتصارها.

وبالتالي تكون أهم المساهمات التي قدمها للنقد الاجتماعي متمثلة في مفهومي: الانعكاس والواقعية الأدبية.

أ/ الانعكاس: عمل الناقد انطلاقا من الاتجاه الماركسي على ربط أشكال الوعي كافة بالبنية الاقتصادية (البنية التحتية) المُحدّدة لها، ففي كتاباته كشف عن العلاقة الجدلية بين دلالات الأعمال الإبداعية الكبرى ودلالات البنيات الاجتماعية، ويرى أن الأدب ظاهرة تاريخية لها أصولها الضاربة في أعماق كفاح الطبقات[12].

ب/ الواقعية: تعدّ كتابات لوكاتش حول الواقعية من أهم وأعمق ما كتب حول هذه المسألة، إذ الواقعية عنده تستند إلى إدراكٍ متعينٍ للواقعِ الاجتماعي، ولكيفية تجاوزه .

ليطوّر مع ما سبق "النظرةَ الواقعية إلى الأدب تطويرا ينطوي على قدر كبير من العمق وكان يميل إلى الجانب الهيجلي مع الفكر الماركسي؛ إذ نظر إلى الأعمال بوصفها انعكاسا لنسق ينكشف تدريجيا، وذلك لأن العمل الأدبي الواقعي لابد أن يكشف عن نمط التناقضات، الذي يكمنُ من وراءِ نمط معين، وظلت نظرته في إلحاحها على الطبيعة المادية والتاريخية لبنية المجتمع "[13].

هو لا يعتبرُ الواقعَ مجرد مكان متدهور محكوم عليه بالإثم الأمثل، بل كمسرحِ صراعٍ دموي بين سلبية القوى القديمة وإيجابية القوى المستقبلية، أضاف البعد التاريخي وحافظ على مقابلة الملحمة والرواية، واعتبر انفصال الفرد مع المجتمع هو التناقض الموضوعي للرأسمالة "[14]، وأثناء كلامه عن الملحمة كتغيير لعالم ينسجم فيه والمجتمع، ركّز لوكاتش في"نظرية الرواية" على استسلام البطل لمصيره الذي سطرته الآلهة، كل ما يقوم به البطل مكتوب منذ الأزل في الكتب السماوية.

وانطلاقا من وجهة نظره الماركسية حافظَ لوكاتش على الانسجام بين الفرد والمجتمع كقاعدة أساسية للملحمة، لكنه انتقل من فوق إلى تحت؛ أي ما كان مصيرا إلهيا أصبح انعداما كليا لتقسيم العمل، هي الطفولة العادية للإنسانية مثلما يقول ماركس، كما آمن بالتطابق بين حركة الفن وحركة الحياة؛ أي أنه على المبدع السعي إلى تغيير الواقع، ويرى بأن الأدب في جوهره هو معرفة بالواقع، تنتج عن رؤية وتحليل، وليس انعكاسا سطحيا لمظاهر الواقع[15]، ليكون بذلك النموذج الأدبي أو النص الأدبي بعامة شبيه من حيث بنيته بآلية /العالم، فلا يكون في هذه الحالة مجرّدَ قول عن العالم، بل إنه يأخذ وضعا بالنسبة للعالم، وهو ككل نموذج يدخلُ في تناسب مع الأصل، متطلبا أن يكون الموقف المتخذ منه مثل الأصل[16]، أو من النص الأدبي –في أي من أشكاله– كما أوضح لوكاتش من قبل، وواضحٌ أن تغيير العالم وتغيير الوجود الاجتماعي وأشكالهِ وراءَ هذا الانعكاس النموذجي الصحيح، وبذلك يظل النص في صراع مع الأصل؛ أي مع الواقع النفسي والاجتماعي المنعكس عنه، وتظلَّ للنص الأدبي خصوصيته وللأديب وضعٌ متميز: الأول في لغتهِ وتشكيله والثاني في رؤيتهِ للعالم والذات.

ليُكمل "ميخائيل باختين" (1895–1975) رؤيةَ "لوكاتش" للروايةِ موضّحًا "أنّ الرواية هي النوع الأدبي الوحيد الذي مازال قيد التّشكل، ولذلك فإنها تعكس بشكل أساسي وبعمق ودقة وسرعة التطور، وما هو قيد التَّشكل يستطيع – وحده– أن يفهم ظاهرة السيرورة، وأصبحت الرواية هي البطل الأساسي للدراما التي يُبرِزها الطور الأدبي في العصر الجديد"[17].

ليخصّص لوكاتش الكثير من أعماله حول الفكر والأدب والفن، مُستندا إلى ربطٍ وثيقٍ بين الذوق الكلاسيكي الذي لا يتوقف عن إبداء إعجابه به، والعقيدة الماركسية (المادية الجدلية التاريخية) التي بقي مُخلِصا لها طوال حياته، فكتاباته وتنظيراته الأدبية والفكرية لا تزال من المراجع الأساسية للأدباء الواقعيين، والنقاد الذين ينهجون المنهج الاجتماعي .

هوامش المحاضرة:

***مصطلح السوسيو نقدية اقترحه الباحث المغربي سعيد علوش، حين ترجم اللفظة الفرنسية socio-critique.**

1-ينظر محمد ساري: الأدب والمجتمع، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، ص95.

2-المرجع نفسه، ص95.

3- سعيد علوش: المصطلحات الأدبية المعاصرة، مطبوعات المكتبة الجامعية ،الدار البيضاء، المغرب 1984، ص96.

4-المرجع نفسه، ص95.

5- محمد ساري: الأدب والمجتمع، المرجع السابق، ص98.

6- يوسف وغليسي: النقد الجزائري المعاصر: من اللانسونية إلى الألسنية، إصدارات رابطة إبداع الثقافة، جامعة قسنطينة، الجزائر، دط، ص40.

7- فتحي بوخالفة: لغة النقد الأدبي الحديث، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط2012،1، ص22.

8- إبراهيم عباس: تقنيات البنية السردية في الرواية المغاربية: دراسة في بنية الشكل، منشورات المؤسسة الوطنية للنشر والاتصال والإشهار، الجزائر، 2002، ص15.

9- مدحت الجيار: النص الأدبي من منظور اجتماعي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، دط، ص59.

10- جورج لوكاتش: الرواية كملحمة برجوازية، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، لبنان ط1، ص44.

11- المرجع نفسه، ص45.

12- إنريك أندرسون أمبرت: مناهج النقد المعاصر، ترجمة: طاهر أحمد المكي، مكتبة الأدب، القاهرة، مصر،1991، ص132.

13- محمد ساري: الأدب والمجتمع، مرجع سابق، ص22.

14- المرجع نفسه، ص22.

15- صالحة عباس: سوسيولوجيا النص الأدبي وتطبيقاتها في النقد العربي المعاصر، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2003، ص15.

16- هورست ريديكو: الانعكاس والفعل، ترجم: فؤاد مرعى، دار الجماهير، دمشق، 1977، ص 177.

17- ميخائيل باختين: الملحمة والرواية، ترجمة: جمال شحيد، كتاب الفكر العربي، معهد النماء، بيروت، لبنان، 1986، ص24.